أضواء على حياة الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي

أشهر تلامذة سيدي عبدالرحمان الثعالبي

هو أبو عبد الله بن عبد الكريم بن محمد المغيلي أحد أعلام الجزائر الشجعان وأبطالها المغاوير في القرن التاسع الهجري ولد بقرية مغيلة التي ينتسب إليها قرب مدينة (تيهرت) ونشأ بها وحفظ القرآن في صغره ورحل إلى بجاية فدرس بها علوم الشرع وأخذ عن مشايخها وتدرب وارتاض عل يد أبي العباس الوغليسي (سيدي عبد الرحمان) وقد عاش المغيلي وعمل خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي وأدرك بداية القرن السادس عشر، و لا نملك أية تفصيلات عن نشأته الأولى وإن كنا نعرف عددا من أساتذته الذين قرأ عليهم، ومن أشهرهم الإمام عبد الرحمان الثعالبي والشيخ يحيى بن يدير وغيرهما .

الأستاذ: الحسين يختار
وكيل الأوقاف بسيدي بلعباس

ثم رحل إلى تلمسان حاضرة العلم وقبلة العلماء آنذاك ومكث بها فترة من الزمن وعندما توسعت مداركه ومعارفه وتزود بما يكفيه تصدى هو الآخر للتدريس كشيخ وأستاذ، فتتلمذ لديه عدد لا بأس به من العلماء والشيوخ أمثال الفقيه أحمد أيد، والشيخ العاقب الأصنامي، ومحمد بن عبد الجبار الفيجيجي وغيرهم، وخلال اشتغاله بالتدريس في تلمسان، لاحظ التعفن السياسي الذي يسود عرش بني زيان والتفسخ والانحلال اللذين يعمان مجتمع المدينة الزيانية وتكالب القوى الأوروبية ضد البلاد وموانئها، وضد كل بلدان المغرب العربي شرقا وغربا، ولاحظ المغيلي كذلك خروج الأمراء عن الجادة الإسلامية وانغماسهم في الملذات فتضايق من العيش هناك وتاقت نفسه للهجرة إلى حيث يكون في مقدوره القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فغادر تلمسان إلى إفريقيا الغربية التي كان يطلق عليها آنذاك (بلاد السودان) في أواخر السبعينات

من القرن الخامس عشر الميلادي وقصد واحات توات ووصل إليها في حدود عام 1479 واستقر بعض الوقت لدى أولاد يعقوب في واحة تمنطيط ثم انتقل إلى واحة بوعلي الهني" وأسس هناك زاويته الدينية التي ما تزال حتى اليوم تحمل إسمه. ويذكر بعض المؤرخين سببا آخر لهجرته من تلمسان غير الذي ذكرنا، وهو حادثة تدبير الإنقلاب ضد السلطان الزياني محمد المتوكل التي أثارت سخط هذا الأخير فشمل غضبه حتى الفقهاء والعلماء، والتي كان من ضحاياها الإمام الونشريسي صاحب المعيار ويبدو أن الإمام المغيلي قد اتخذ من توات مقاما دائما له، وذلك منذ نزوله بها،فقد سافر بعد حادثة توات -التي سنعود للحديث عنها- مباشرة بعد فاس لمناظرة فقهائها الذين اتهموه بالطموح السياسي ثم عاد إلى توات، ولما قام برحلته الطويلة بعد ذلك إلى إفريقيا الغربية عاد إلى توات أيضا وذلك حينما بلغه الخبر و هو في مدينة غاو الإفريقية أن اليهود قتلوا إبنه عبد الجبار، فرجع على الفور إلى توات وبقي بها حتى وافته المنية سنة 909هـ-1050م

رحلته

وأما عن المدن التي زارها الإمام المغيلي ببلاد السودان لأجل الدعوة ونشر العلم، فأولها بلاد الأهير التي حل بها مباشرة بعد عودته من فاس ودخل بلدة تكدة حيث اجتمع بسلطانها وقرأ عليه وأهلها وانتفعوا به ثم دخل بلاد وكشن واجتمع أيضا بسلطان كانو محمد بن يعقوب واستفاد منه وكتب له رسالة في أمور السلطنة يحضه فيها على اتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم ارتحل إلى بلاد التكرور فوصل إلى بلاد كانو عاصمة مملكة سنغاي التي كان يرأسها الأمير الأسقيا الحاج محمد الكبير الذي قرر الالتقاء بالإمام المغيلي، واستفتاه في كثير من مسائل الشرع، وقربه إليه وطلب منه تأليف رسائل أجابه فيها عن مسائل، واثبت له من خلالها إطلاعه الواسع على أحوال هذه البلاد وسلوك أمرائها وعادات سكانها في رسالة بعنوان "تاج الدين فيما ينبغي على الحكام والسلاطين من أمور الشرع والدين".

ثم سافر إلى بلاد الكبي ومنها إلى تمبكتو.

وبمدينة كانوا سمحت له ظروف الإقامة الطيبة بين أهلها أن يتزوج هناك وينجب ذرية منها، وقد اشتغل بالتدريس هناك أيضا حتى تخرج على يده ثلة من التلاميذ الذين ظلوا يذكرون فضله ويدينون له بالولاء، وأنشأ زاوية أخذت اسمه فيما بعد.

هكذا عاش المغيلي داعيا، مجاهدا ومعلما إلى أن وري التراب.

وقدر له الأجل في أن يدفن في تربة وطنه التي أحبها وتعلق بها بمنطقة توات (زاوية كونتا) بعد حياة السفر والترحال التي قادته إلى مختلف البقاع من القارة الإفريقية.

منزلته

لقد كان الإمام المغيلي أحد علماء زمانه اللامعين دون شك وما امتداد جهوده إلى بلدان القارة الإفريقية إلا دليل عملي على المكانة التي كان يتمتع بها بين أقرانه ،وبين سكان هذه الأقاليم، الذين لايزالون يذكرون محاسنه إلى يومنا هذا.وقدكانت شهادة علماء عصره من أحسن ما يستشهد به في هذا الباب فيما يتعلق بمنزلة المغيلي.

فمما جاء في رسالة الشيخ السنوسي قوله:" من عبيد الله محمد بن يوسف السنوسي إلى الأخ الحبيب القائم بما اندرس في سالف الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي يعتبر القيام بها لا سيما في هذا الوقت علما على الاتسام بالشجاعة العلمية والغيرة الإسلامية وعمارة القلب بالإيمان السيد أبي عبد الله بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله حياته وبارك في دينه ودنياه وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه....."

وعنه يقول الونشريسي في المعيار: الإمام الشيخ العلامة.....

ومما يستدعي الانتباه في هذا المقام هو تلك النعوث والألقاب التي أطلقها مترجموه فعلاوة على وصف الإمام الذي أجمعت كلّ التراجم عليه ، وصفه أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج " بخاتمة المحقيقين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح ، السني أحد

الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم " وقال عنه ابن مريم في البستان :" القدوة الصالح الحبر، أحد أذكياء العلم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم"

وبعد هذه اللمحة الخاطفة عن حياة الحافظ المغيلي، وقد لاحظنا بما زخرت به من جهود، وبعد أن أشرنا إلى منزلته بين علماء عصره، بقي لنا أن نذكر آثاره

آثـــاره

خلف المغيلي وراءه تلاميذ كثيرين يعدون بالمئات في غرب إفريقيا، وفي منطقة توات ما زالوا حتى اليوم يدينون له بالولاء الفكري والأدبي، ويعترفون بفضله على مجتمعاتهم، وكتب الكثيرون عنه وعن سيرته الشخصية، والاجتماعية والثقافية مثل أحمد بابا التنبكتي، وأبن مريم، حسن غوارزو والمقربي، اليفرني وعدوه من كبار المصلحين ببلاد المغرب والسودان خلال القرن التاسع الهجري.

ومع ذلك فإن جوانب عديدة من حياة المغيلي، ونشاطه الفكري والعلمي والأدبي ما تزال مجهولة وتحتاج إلى بحث وتدقيق وفرز،إن جهود المغيلي في توات والسودان الغربي رائدة في المجال السياسي.

وإلى جانب ما ذكرنا خلف المغيلي كذلك إنتاجا فكريا غزيرا في ميدان التأليف وما يزال الكثير منه مخطوطا، ومحفوظا لدى تلاميذه، والمحبين له من الأسر الإسلامية في بلاد التوات والسودان، ومن ضمن ذلك حسبما ورد في كتاب البستان لإبن مريم:

1. كتاب البدر المنير في علم التفسير
2. مصباح الأرواح في أصول الفلاح حققه ونشره الأستاذ رابح بونار.
3. مغني الخليل شرح مختصر خليل وصل فيه إلى موضوع القسمة بين الزوجين
4. إكليل المغني النبيل، شرح مغني الخليل
5. إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل

6. شرح بيوت الآجال
7. مختصر تلخيص المفتاح
8. مفتاح النظر في علم الأثر
9. شرح الجمل في علم المنطق
10. تأليف في المنبهات
11. منح الوهاب في علم المنطق
12. تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين
13. مقدمة في اللغة العربية
14. فهرست المرويات
15. كتاب الفتح المبين
16. تاج الدين
17. ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام
18. قصائد المديح منها الميمية على وزن البردة

***

الأوضاع السياسية والفكرية لبلدان المغرب العربي

عاصر الإمام المغيلي ظروفا سياسية تبدو كلها صعبة بدءا بسقوط غرناطة آخر عمارة للمسلمين بالأندلس سنة 1492 إلى هجمات الإسبان على سواحل المغرب العربي محاولة منهم احتلال هذه البلدان، إلى حالة الضعف والانقسام الشديدين داخل دويلات المغرب العرب،ي ففي تلمسان كانت دول بني زيان قد اقتصر نفوذها على مناطق جد ضيقة في الغرب الجزائري، وأنهكتها بصورة خاصة هجومات وتآمر كل المرينيين أمراء فاس، والحفصيين أمراء تونس المتوالية وسعى كل منهما لتنصيب حكام موالين لهم.

وفي الشرق الجزائري فقد كان أمير قسنطينة يدين بالولاء للحفصيين،غير أنه كان في شبه الاستقلال بمنطقته وفي غير ذلك كان نفوذ أمراء محليون في جهات عديدة من البلاد وكونوا لأنفسهم إمارات محلية، ولعل من أشهرهم: أمير بني عباس بجبال البيبان

وأمير آيت يحيى بمملكة كوكو المعروفة ببلاد القبائل الكبرى.

وحكم في كل من فيقيق والونشريس رجال الطرق الصوفية كما سيطرت في واحات الجنوب عائلة دواودة وأحلافها، وأم المدن الساحلية فكانت تدار بواسطة مجالس الأعيان.

كانت هذه الأوضاع هي التي مهدت لحملات الإسبان لاحتلال العديد من السواحل الجزائرية ثم سقوط المرسى الكبير ووهران وبجاية على أيدي الغزاة الأسبان.

وقد انعكست هذه الظروف والاضطرابات التي عاشتها بلدان المغرب العربي آنذاك على الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية للشعوب.

وكان الإمام المغيلي واحدا ممن تأثروا بتلك الأوضاع واستاؤوا منها غاية استياء.

وأما عن أقرانه من العلماء الذين أدركهم وعاصرهم الإمام المغيلي وعاشرهم معاشرة ودية، فعلاوة على ما تقدم نذكر أيضا من مشاهيرهم أبو الحسن التنسي صاحب نظم الدر العقيان في شرف ملوك بني زيان، وسيدي محمد بن ابي مدين التلمساني وابو العباس الونشريسي وابراهيم بن القاسم العقباني وسيدي أحمد بن محمد بن زكريا وابن زكري وسيدي محمد السنوسي وأبو زكريا يحيى بن موسى السنوسي... وغيرهم.....

قضية يهود توات

ولننتقل إلى واحدة من أخطر القضايا التي واجهها الإمام المغيلي وتصدى لها بكل حزم وثبات، وهي تلكم القضية التي اشتهرت في كتب التاريخ بـ:" قضية يهود توات".

وهي القضية التي وقف عليها كثير من المؤرخين والباحثين بالتفصيل والإسهاب، إلا أنه مما ينبغي الإشارة إليه والتنبيه عليه هو أن هذه القضية قد أثيرات مرات عديدة ولدواع مختلفة لدى الدارسين المعاصرين والأخطر من ذلك أن بعض الكتاب ممن يكنون العداء للإسلام ولأعلامه حاول إستغلال هذه القضية للطعن في الشيخ المغيلي خاصة والإساءة إلى التراث الإسلامي عامة.

والواقع أن الإمام المغيلي كان قد لاحظ في يهود توات جالية يهودية قد

طغت بأموالها و ثرائها، واستغلت ذلك في نفوذها السياسي ، وأرادت إذلال العامة من الناس وإخضاع القادة والساسة لإرادتها، ولخدمة مصالحها الخاصة، وخرجت عن وضعيتها القانونية في بلاد المسلمين، ولما أدرك ذلك المغيلي قام فيهم مصلحا لا غير، ولما نقضوا العهد ببناء معبد لهم بتوات، رفع عقيرته مستنكرا عملهم هذا، فلقي معارضة من قبل قاضي توات (أبو عبدالله العصنوني9) فلما اختلفا راسلا فقهاء تونس وتلمسان وفاس وهي المدن التي كانت حواضر العلم والفقه آنذاك، ولما وافته فتاوى المؤيدين لموقفه، قام مع أتباعه في توات بتهديم تلك البيعة، وألزم اليهود بالذل والهوان على حد تعبير إبن مريم في البستان: ثم أنشأ في الحين قصيدة ميمية على وزن البردة في مدح رسول الله صلى الله وسلم يذم فيها اليهود وأشياعهم.

والجدير بالذكر أن للشيخ المهدي أبو عبد اللي رحمه الله بحثا رائعا في الموضوع، وخلص إلى أن للقضية وجهين أحدهما سياسي والآخر فقهي، وذلك في مقالته:"أضواء على مدينة تمنطيط المنشورة في مجلة الثقافة سنة 1986.

لقد بدا المغيلي واضحا من خلال عمله هذا، أنه قوام بالحق جريئ لا يخشى في الله لومة لائم ، وتلك شيم العلماء العاملين الذين يحيون بعلمهم في واقع الناس ويدركون جيدا كيف تنزل النصوص منزل الواقع وهذا كله لا يتسنى إلا لمن أوتي موهبة العلم والحكمة ورزق حظا وافرا من الذكاء الثاقب، وهو الوصف الذي أطلقه عليه مترجموه كما ذكرنا من قبل وخلاصة القول: إن الإمام المغيلي إنما قام به في شأن اليهود كان بدافع الغيرة على حرمات الإسلام، ولأجل دحض الباطل وإعلاء الحق، لا بدافع العداء العرقي كما يزعم البعض، فقد عاش اليهود بين المسلمين بحرية ،وقد شهد شاهد من أهلها على ذلك فهذا أندري شوراقي (اليهودي) يقرر في كتابه "اليهود في شمال إفريقيا" طبعة باريس 1952: فاليهود بالإجارة أسعد حالا ببلاد الإسلام منهم في غالب البلاد الأوروبية ،حيث كانوا حقيقة معرضين لحقد صارخ،... إلى أن يقول: إن أكبر سيد مسلم لا يتردد في أخوة اليهودي البائس المتجول له

وأعتذر عن قصور الإلمام وقلة الإحاطة بسيرة هذا العلم الشامخ الذي مهما قيل وكتب عنه فإنه قليل بالنظر إلى ما قدمه من جهود خدمة للوطن والأمة، وحسبك أنه كان من الأوائل الذين أسسوا للزوايا في الجزائر.

هذه لمحات وجيزة أردت من خلالها تسليط الأضواء على أحد الأعلام الأشاوس الذين أنجبتهم هذه البلاد الطيبة ومفخرة من مفاخرها المغمورة في التاريخ.